محمد محمد المدني

التعريف
بسورة
آل عمران

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وصحبه الهداة الراشدين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد : فهذه خلاصة لبعض محاضرات التفسير التي ألقيتها على طلاب الفرقة الثالثة في « كلية دار العلوم » بجامعة القاهرة . وهي المحاضرات التي أردت بها « التعريف بسورة آل عمران » كمقدمة بين يدي تفسيرها .

وأرجو أن يجد فيها الطلاب مايعينهم على تتبع أغراض السورة ، وإدراك مراميها ، وتفسير معانيها . والله ولي التوفيق .

ربيع الأول سنة ١٣٧٦ هـ
أكتوبر سنة ١٩٥٦ م

محمد محمد المدني

أستاذ الشريعة الإسلامية المساعد
في كلية دار العلوم ـ بجامعة القاهرة

التعريف بالسورة

١ ــ اسم السورة :

لم سميت بسورة (آل عمران) ــ ولم سميت هى وسورة البقرة بالزهراوين ــ ومَن المقصود بعمران ؟

٢ ــ البيئة والظروف التى نزلت فيها السورة :

(ا) بيئة المدينة والصعاب التى كان المسلمون يواجهونها فى تلك البيئة : من فتن اليهود ودسائسهم ، ومن جدل النصارى الوافدين من نجران ، ومن الحرب بينهم وبين المشركين .

(ب) ظروف تكوين الدولة الإسلامية وما تقتضيه من أسس يقوم عليها بناؤها .

٣ ــ الأغراض التى ترمى إليها السورة . ومناسبتها للبيئة والظروف :

(ا) تقرير الحقيقة فى شأن الألوهية والرسالة والدين .

(ب) بيان الصوارف التى تصرف الناس عن الحق .

(ح) رسم الطريق لمن أراد معرفة الحقيقة والاطمئنان إليها والتحصن من الزيغ والضلال .

(ى) وضع الأسس الرئيسية التى تكفل للأمة قوة البناء ، ودفع خطر الأعداء ، وإدراك النجاح والفلاح فى الحياة .

١ — سميت هذه السورة باسم « آل عمران » لما ورد فيها من قوله تعالى « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » .

ومن تتبع أسماء السور فى القرآن الكريم يعرف أنها كثيراً ما تسمى بحادثة ذكرت فيها ، أو باسم عرضت له يكون له شأن خاص يلفت النظر ، وذلك مثل سورة « البقرة » التى سميت بهذا الاسم لحادثة البقرة المذكورة فيها ، وسورة « الكهف » التى تحدثت عن قصة أهل الكهف ، وسورة « الدخان » التى جاء فيها « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين » إلى غير ذلك .

وسورة « آل عمران » من هذا القبيل . فقد ذكر فيها آل عمران فى الآية التى قدمناها ، وكان لهذا الاسم شأن فيها ، إذ هو متصل بعيسى بن مريم بنة عمران ، الذى جاء صدر عظيم من آيات السورة فى بيان شأنه . وإبطال ما كان النصارى يزعمون من أنه إله أو ابن إله .

غير أن المفسرين اختلفوا فى عمران هذا الذى سميت السورة بآله . أهو عمران أبو موسى وهرون ، الذى ينتهى نسبه إلى يعقوب بن إبراهيم — وذلك ما يروى عن مقاتل — أم هو أبو مريم أم عيسى ، وهو من نسل سليمان بن داود عليهما السلام — وهذا قول الحسن ووهب .

وكثير من أهل العلم يميل إلى الثـــانى ، لأن مريم وابنها هما أساس القصة المذكورة فى السورة ، وليس فيها ذكر لموسى وهرون ، ولأن الرد على النصارى مبناه أن الله تعالى من سنته أن يصطفى بعض خلقه ، وقد اصطفى « آل عمران » كما اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم ، وجاء فى القصة « وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك » ، فالتعبير بالاصطفـاء فى مريم ، يتلاقى مع التعبير بالاصطفاء فى آل عمران الذين هم آل مريم(١)

* * *

٢ — وسميت هذه السورة هى وسورة البقرة « بالزهراوين » لما خرجه مسلم عن أبى أمامة الباهلى ، وفيه « اقرؤا الزهراوين : البقرة وسورة آل عمران » ، وقد فسر ذلك بأنهما النيرتان ، مأخوذ من الزَّهر والزُّهْرة ، لهدايتهما قارئهما بما يزْهر له من أنوارهما أى من معانيهما (٢)

---

(١) راجع فى هذا الموضوع تفسير الشيخ رشيد رضا ج ٣ ص ٢٨٩ وتفسير الأستاذ الشيخ شلتوت فى مجلة « رسالة الإسلام » ص ٢٣٢ من المجلد الثانى ـ وتفسير ابن كثير والبغوى عند قوله تعالى « إن الله اصطفى آدم » وغير ذلك من كتب التفسير .

(٢) تفسير القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ج ٤ ص ٣ طبع دار الكتب المصرية .

١ — نزلت هذه السورة بالمدينة بعد أن استقر المسلمون فيها أعواما . ويتبين ذلك من أنها تتحدث عن حوادث معينة منها غزوة بدر الكبرى التى كانت فى السنة الثانية . وغزوة أحد التى كانت فى السنة الثالثة . وغزوة بدر الآخرة التى خرج إليها النبي صلى الله عليه وسلم فى شعبان من السنة الرابعة ، وهى التى تقول فيها السورة « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » .

كما تحدثت عن وفد نجران وما كانوا يجادلون به فى شأن عيسى وغير ذلك . ووفد نجران لم يقدم إلى المدينة إلا بعد أعوام من الهجرة ، وإن كانوا قد اختلفوا فى تحديد العام الذى قدم فيه (١) .

* * *

٢ — ونرجح أن السورة نزلت متفرقة كأغلب ما نزل من القرآن الكريم ، ويدل على ذلك الروايات التى يسوقها المفسرون فى أسباب نزول بعض آياتها . وأن هذه السورة ليست من السور التى ورد أنها نزلت جملة واحدة . كسورتى الأنعام والمرسلات مثلا .

* * *

٣ — وقد كانت المدينة موطنا مشتركا بين المسلمين واليهود . وكان بين الفريقين موادعة وعهد أول الأمر ، ولكن اليهود لم يكونوا مخلصين للعهد .

---

(١) ذكر ابن كثير ان ذلك كان فى العام التاسع الهجرى — راجع تاريخه (البداية والنهاية) فى الجزء الخامس — حوادث السنة التاسعة ، وراجع تفسيره عند أول السورة . وعند قوله تعالى « فمن حاجك فيه » ٦١ / آل عمران .

فكانوا يتربصون بالنبي وأصحابه دوائر السوء ، ويفرحون إذا هزم المسلمون فى موقعة ، ويحزنون إذا انتصروا فى غيرها ، بل وصل الأمر بهم إلى أن قالوا للنبي صلوات الله وسلامه عليه بعدرجوع المسلمين إلى المدينةمن غزوة بدر منتصرين : « يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرا من قريش كانوا أغمارا (١) لا يعرفون القتال ! إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا » (٢) .

وكادوا مرة يقتلون النبي صلى الله عليه وسلم حينما ذهب هو ونفر من كبار أصحابه إلى محلة لهم علىمقربة من قباء ضاحية المدينة ، إذ هَمَّ بعضهم بأن يلقى عليه رحى من أعلى المنزل الذى كان عليه الصلاة والسلام يجلس مستندا إلى جداره ، ولكنه انسحب فى الوقت المناسب فنجا (٣) .

ومن مظاهر انطواء اليهود على الغش والخداع للإسلام والمسلمين أنهم كانوا يحاولون فتنة بعض المسلمين عن دينهم ، ويدعونهم إلى اعتناق اليهودية ، وقد عرضوا ذلك على معاذ بن جبل ، وحذيفة بن اليمان ، وعمار بن ياسر ، وأن اثنى عشر حبرا من أحبارهم تآمروا فقال بعضهم لبعض : ادخلوا فى دين محمد أول النهار باللسان دون الاعتقاد ، ثم اكفروا آخر النهار وقولوا : إنا نظرنا فى كتبنا ، وشاورنا علماءنا ، فوجدنا محمدا ليس هو ذلك المنعوت ، وظهر لنا كذبه ، فإذا فعلتم ذلك شك أصحابه فى دينهم واتهموه تأثرا بأننا أهل الكتاب وأننا أعلم منهم به فيرجعون عن دينهم (٤) .

---

(١) جمع غمر ـ بغين مثلثة وميم ساكنة ـ : وهو من لم يجرب الامور ولم يتمرس بالأحداث
(٢) تفسير ابن كثير ص ١٠٦ ج ٢ — طبعة المنار . (٣) اقرأ كتب السيرة ، وكتب التفسير فى قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم » ١١ / المائدة .

(٤) تفسير البغوى وغيره ، عند قوله تعالى « ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم » ٦٩ / آل عمران ، ثم عند قوله تعالى « وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون » ٧٢ / آل عمران .

وكما طمعوا فى إفساد عقيدة المسلمين وردهم عن دينهم ، طمعوا فى إفساد علاقات الأخوة بينهم وتجديد فتنة العصبية الجاهلية فيهم ، فقد روى أن شاس ابن قيس اليهودى دس على الأوس والخزرج (١) من يذكرهم ما كان بينهم من الحروب ، فجلس بينهم وأنشدهم شعرا قاله أحد الحيين فى حربهم ، فقال الحى الآخر : قد قال شاعرنا فى يوم كذا : كذا . فضخم الأمر حتى كاد الحيان يقتتلان لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف بين الصفين وأعادهم إلى الرشد وذكرهم ، فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم . فألقوا السلاح من أيديهم ، وبكوا ، وعانق بعضهم بعضا ، ثم انصرفوا مع النبي صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين(٢)

إلى غير ذلك من فتن اليهود يومئذ ، وحوادثهم التى تدل على انطوائهم على المكر والخديعة وتربص دوائر السوء بالإسلام والمسلمين .

* * *

٤ — وكان للمسلمين إلى جانب هذه الصعاب الداخلية صعاب خارجية . حيث كانت الحرب دائرة بينهم وبين المشركين ، وكانت الغزوات تلو الغزوات تستنفد كثيراً من جهودهم ، سواء فى الإعداد لها ، أو فى تحمل تبعاتها وآثارها بعد انتهائها .

وقد تراوح أمرهم فى هذه الحروب بين النصر والهزيمة : فانتصروا فى « بدر الكبرى »، واضطروا أبا سفيان وجيشه إلى الرجوع والفرار يوم «حمراء الأسد» وانهزموا فى « أحد » ، وفقدوا من فقدوا من المسلمين يوم « الرجيع » ويوم « بئر معونة » (٣)

---

(١) وهما حيان فى المدينة كان بينهما حروب وعداوات فى الجاهلية ، وجمع بينهما الإسلام .

(٢) تفسير القرطبي وغيره عند قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » ١٠٠ / آل عمران .

(٣) هذه كلها غزوات سميت بأسماء أماكنها ، اقرأ فيها كتاب (حياة محمد) للدكتور محمد حسين هيكل ص : ٢٩ وما بعدها ، وغيره من كتب التاريخ مثل (البداية والنهاية) لابن كثير فى الجزأين الثالث والرابع .

ومن هذا يتبين أنهم كانوا مع المشركين فى موقف يقتضيهم كثيراً من الحذر ، وكثيراً من اليقظة والنشاط .

* * *

٥ — وبينما النبي والمسلمون فى هذا الموقف بين جيرانهم من اليهود المخادعين ، ومحاربيهم من المشركين ، إذا وفْدٌ من نصارى نجران يقدم ذات يوم إلى المدينة فى ستين راكبا ، عليهم أمير ينزلون على أمره ، وأسقف يرجعون إليه فى شئونهم الدينية . وقد جاءوا لمحاجة النبي فى الدين ومعرفة عقيدته فى عيسى وأمه ، ومحاولة إثبات أنه ابن الله ، وأنه أمر الناس بعبادته . ، إلى غير ذلك من قضايا العقيدة المتعلقة بشأن الإله والرسالة والدين ، وفى ذلك يقول محمد بن اسحق فى سيرته :

« قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نصارى نجران ستون راكبا ، فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم يئول إليهم أمرهم ، وهم : العاقب واسمه عبدالمسيح ، والسيد وهو الأيْهَم ، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل» ـ ثم قال بعد أن عدهم ـ : «وكان العاقب أمير القوم وذا رأيهم وصاحب مشورتهم والذى لا يصدرون إلا عن رأيه ، وكان السيد عالمهم وصاحب رحلتهم ومجتمعهم ، وكان أبو حارثة بن علقمة أسقفهم وصاحب مدارستهم ، وكان ـ أى أبو حارثة هذا ـ رجلا من بنى بكر بن وائل ، ولكنه تنصر فعظمته الروم وملوكها وشرفوه وبنوا له الكنائس وأخدموه ، لما يعلمونه من صلابته فى دينهم ، وقد كان يعرف أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفته وشأنه مما علمه من الكتب المتقدمة ، ولكنْ حَمَله على الاستمرار فى النصرانية ما يرى من تعظيمه فيها ، وجاهه عند أهلها . . . فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أبو حارثة بن علقمة ، والعاقب عبد المسيح ، والسيد الأيهم ، وهم من النصرانية على دين الملك إلا أن أمرهم مختلف : فمنهم من يقول عيسى هوالله ، ومنهم من يقول هو ابن الله ، ومنهم من يقول هو ثالث ثلاثة ـ وكذلك النصرانية ، فهم يحتجون

على أنه الله ، بأنه كان يحيي الموتى ، ويبرىء الأكمه والأبرص والأسقام ، ويخبر بالغيوب ، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا ، ويحتجون على قولهم إنه ابن الله ، بأنه ليس له أب يُعلم ، وقد تكلم فى المهد ، وذلك شيء لم يصنعه أحد قبله ، ويحتجون على أنه ثالث ثلاثة ، بمثل قول الله تعالى : هدينا - وأمرنا - وخلقنا - وقضينا ، فيقولون : لو كان واحدا ما قال إلا هديت - وأمرت - وقضيت - وخلقت ، ولكنه هو وعيسى ومريم - تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا - وفى كل ذلك من قولهم نزل القرآن . . الخ (١)

* * *

من هذا يتبين :

١ — أن المدينة فى زمان نزول السورة ، كانت مجتمعا يموج بالنشاط الفكرى ، والجدل الدينى بين الأديان الثلاثة : الإسلام ، واليهودية ، والنصرانية .

٢ — وأن المسلمين كانوا يقاسون كثيرا من الصعاب الداخلية والخارجية ، وكانوا يجابهون عدة قوى متحالفة عليهم ، فيضطرون للدفاع فى ميدان الجهاد المادى ، وفى ميدان الجهاد الفكرى الدينى ، وفى ميدان الجهاد السياسى .

٣ — وأن أكثر ذلك كان فى وقت تكوّن دولتهم ، وما يقتضيه هذا التكون من وضع أسس قوية فى مختلف النواحى يقوم عليها بناء هذه الأمة الجديدة .

* * *

هذه هى البيئة والظروف التى نزلت فيها سورة (آل عمران) نكتفى فى تصويرها بما ذكرنا ، وننتقل إلى تعرف الأغراض التى رمت إليها . تجاوبا مع تلك البيئة ، وهذه الظروف :

(١) القصة مذكورة بتمامها فى كتب السير ، وتجدها فى سيرة ابن هشام عن محمد بن اسحق من ص ٥٥ ج ٢ طبعة المطبعة الجمالية سنة ١٣٣٢ هـ ١٩١٤ م كما تجدها عنه أيضا فى تفسير آية المباهلة لابن كثير ص ١٥٤ ج ٢ من الطبعة السابق ذكرها .

٣

لقد تجاوبت السورة مع البيئة والظروف التى أجملنا الحديث عنها فيما سبق ، تجاوبا قويا عجيبا ، فسبَّحت فى كل جانب من الجوانب التى كانت تشغل المدينة وما حولها ، وكان ذلك كله فى هذا الأسلوب القرآنى البارع المعجز الذى يتنقل بالقارىء أو السامع من ناحية إلى أخرى ، ويتتبع المواطن التى تصلح لاستخلاص العبرة ، وبث المبدأ والفكرة ، وإلقاء الحجة ، ودفع الشبهة ، والإرشاد إلى الأسرار الباعثة والدوافع الخفية ، وإعطاء النصيحة ، ورسم الطريق .

وينبغى أن نكون على بصيرة من أن أسلوب القرآن الكريم يعتمد على هذا التنويع والتلوين ، ولا يهتم بالتنظيم الصناعى التأليفى بأن يسوق الحوادث على ترتيب وقوعها ، ويفرد لكل شىء حديثا لا يتطرق إلى غيره . فإنه إنما يعرض لما يعرض له من الجانب الذى يفيد العبرة ، ويؤيد الدعوة التى جاء بها ، دون تتبع للحوادث أو اهتمام مقصود بما يتصل بها من أشخاص أو أمكنة أو أزمنة .

وسبيلنا إلى تعرف الأغراض التى عنيت بها سورة آل عمران : أن نجملها أولا فى الذكر ، ثم نعود إلى ما أجملناه بشىء من البيان والتفصيل ، مستعرضين ما جاء من الآيات فى كل غرض منها :

* * *

أما الأغراض على سبيل الاجمال فهى :

« ا » تقرير الحقيقة فى شأن الألوهية والرسالة ووحدة الدين .

« ب » بيان الصوارف التى تصرف الناس عن الحق ، وأنها إنما تؤثر فيمن يميل إليها ، ويضعف أمامها .

« ج » رسم الطريق لمن أراد معرفة الحقيقة والاطمئنان إليها ، والتحصن من الزيغ والضلال .

« د » وضع الأسس الرئيسية التى تكفل للأمة قوة البناء ، ودرء خطر الأعداء ، وإدراك النجاح والفلاح فى الحياة .

* * *

وإليكم شيئا من البيان والتفصيل لهذه الأغراض :

فنى دائرة الغرض الأول : نراها تضع الحقائق فى نصابها . رداً على ما كان يثيره أهل الكتاب من يهود ونصارى على الإسلام :

١ – فنراها تقرر فى مطلعها الحقيقة الأولى التى جاء بها كل دين ، وأنزلها الله فى كل كتاب ، وعلى لسان كل رسول : تلك الحقيقة هى « الوحدانية » أى كون الإله واحداً لا شريك له ، ثم تصف الله تعالى بصفاته العظمى التى هى منبع الفيض والتدبير للكون ، وهى: «الحياة» و «القيومية» و « إنزال الكتب » هداية للناس.

ونبادر هنا بالتنبيه إلى أن وصف الله بالحياة يتضمن اتصافه بالعلم والإرادة والقدرة ، ويبطل قول الماديين الذين يزعمون أن مبدأ الكون هو التفاعل والمصادفة والمادة التى لا حياة فيها ولا شعور لها ، أما « القيومية » فتعنى التدبير وقيامه تعالى على كل ما سواه ، والصفة الثالثة لازمة لها ، لأن قيام الله تعالى على كل ماسواه: من مظاهره هداية الناس عن طريق اصطفاء الرسل وإنزال الكتب ورسم الصراط المستقيم فى العقائد والشرائع ، وإنما خص هذا الشأن بالذكر مع تضمن « القيومية » إياه ، لأنه شأن ذو خطر وأهمية عظمى ، حيث شغل الأذهان قديما وحديثا ، واختُص بأن الناس دائماً يتساءلون عنه ، وفيهم من يعجب له إلى حد أن ينكره .

هـــذا هو ما تضمنه مطلع سورة آل عمران : « الم . الله لا إله إلا هو الحى القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس ، وأنزل الفرقان » .

وكل ما ذكر بعد ذلك فى شأن الألوهية فهو مظاهر لهذه الصفات القدسية :

اقرأوا قوله تعالى «إن الله لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم » تروا مظهر العلم المحيط ، ومظهر الخلق والبَرْء والتصوير على ما ترسم المشيئة المطلقة .

واقرأوا : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ، تولج الليل فى النهار ، وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب » تروا مظهر « القيومية » فى تدبير العالم وتصريفه عن مِلك وقدرة ، وبمقتضى المشيئة التى ليس عليها قيد ، ولا يحدها عجز .

ثم اقرأوا : « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » تروا مظهر القيومية وتدبير الخلق عن طريق الوحى والرسالات ، وأن هذه الآية قد أشارت إلى جميع الرسالات الإلهية ، أو جميع الاصطفاءات التى فاضت بها الألوهية على البشر ، حيث كرَّم آدمُ أبوهم الأول ، ونوحٌ أبوهم الثانى ، وآلُ إبراهيم الذى هو رأس السلالة المصطفاة من الأنبياء عن طريق ابنيه اسحق وإسماعيل ، وآلُ عمران الذين منهم مريم ، ومنهم عيسى .

واقرأوا غير ذلك فى السورة مثل : « قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ، ويعلمُ ما فى السموات وما فى الأرض ، والله على كل شيء قدير » « إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ؟ وعلى الله فليتوكل المؤمنون » « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله ، وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » .

* * *

٢ — ثم نرى السورة فى هذه الدائرة أيضا تقرر أن شأن عيسى من حيث الرسالة كشأن غيره ممن اصطفاهم الله من البشر . نعم إن أمه ولدته من غير أب على غير ما هو مألوف ، ولكن ذلك أمر صادر عن المشيئة الإلهية التى لا يحدها فى الخلق شىء ، وقد حدث ما هو قريب من هذا لبعض أنبياء الله . إذ وهب الله نبيه زكريا غلاما اسمه يحيى ، وكان قد بلغ من الكبر عتيا ، وكانت امرأته عاقرا ، ولم يؤلف فى العادة مثل ذلك ، ولكنها إرادة الله وحكمته ، بل حدث ما هو أبعد من هذا فى أول البشرية حيث خلق الله آدم من غير أب ولا أم . فهو أبعد فى العادة من خلق عيسى بدون أب .

ونراها تقرر أن عيسى إنما كانت تصدر منه العجائب بإذن الله ، فهى معجزات وخوارق حصلت على يديه ، ولم تحصل به ، وأن عيسى أرسل برسالة إلى بنى إسرائيل أساسها تصديق ما سبقه من التوراة لا تكذيبها . وإصلاح ما أفسدوه منها ، فليست رسالة هادمة ، وإنما هى رسالة إصلاح وتثبيت وتأييد ، وأن عيسى قد لقى ممن أرسل إليهم ما يلقاه الأنبياء عادة من إنكار وجحود . ثم من إيذاء وحرب ، وأن الله طهره من الذين كفروا بتوفيه ورفعه إليه .

ذلك هو القصص الحق فى شأن عيسى تقرره السورة فى آيات منها . تبدأ من قوله تعالى « إذ قالت امرأة عمران » إلى قوله تعالى « إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم . فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين » الآيات من ٣٥ إلى ٦٣ وفى الآية الحادية والستين منها آية تعرف بآية المباهلة ؛ لأن الله أمر فيها نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يدعو نصارى وفد نجران إلى الوقوف معه موقف الابتهال إلى الله بأن يجعل لعنته وعذابه على الفريق الكاذب منهما ، وهذا تحكيم لأحكم الحاكمين لم يستطع النصارى قبوله . وخافوا مغبة الإقدام عليه فنكصوا . وذلك قوله تعالى : « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من

العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » .

* * *

٣ — ثم نرى السورة فى هذه الدائرة أيضا تقرر أن الرسل أعقل وأكبر من أن يزعموا لأنفسهم مرتبة الألوهية كما زعم النصارى فى شأن عيسى، أو أن يأمروا الناس بعبادة غير الله من نبي أو ملك : «ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ، ولكن» - أى ولكن يقول لهم - : «كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون »

وقد تحدثت سورة المائدة عن هذا المعنى فى شأن عيسى إذ يسأله الله يوم القيامة عما قال للناس ، وذلك حيث يقول جل شأنه « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب، ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به : أن اعبدوا الله ربى وربكم، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد » ١١٦ — ١١٧ / المائدة .

وهذا إنكار تبدو فيه القوة فى التبرؤ وتنزيه الله تعالى والخوف الشديد منه .
وانظروا إلى التعبير فى آية آل عمران التى تقرر الحكم العام بقولها : « ما كان لبشر » والتعبير فى آية المائدة على لسان عيسى بقولها « مايكون لى » ، تعلموا من هذا التشابه أن القرآن يرجع هذه الحادثة الخاصة إلى الحكم العام . ويبين أن شأن عيسى فى ذلك لا يعدو أن يكون كشأن غيره من الرسل .

* * *

٤ — ونرى السورة تقرر فى شأن النبوات أيضاً أن جميع أنبياء الله تعالى متكافلون على ميثاق واحد هو إيمان كل بصاحبه ونصرته وتصديقه ، أوهو إيمان السابقين منهم بمن يأتى بعدهم مصدقا لما معهم ، وذلك ما ينطبق على رسالة محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، حيث جاء بالحق مصدقاً لما بين يديه من الرسالات السابقة ، فلو كان الأنبياء السابقون أدركوه لما وسعهم إلا الإيمان به وتصديقه واتباعه ، وذلك قوله تعالى « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » .

* * *

٥ — ويتصل بهذا ما تقرره السورة من وحدة الدين عند الله : « إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » ، « فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين : أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ » ، « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرها وإليه يرجعون ؟ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط . وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون ، ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

وهنا ينبغى أن نلتفت إلى أن القرآن يقرر « وحدة الدين » بمعنى ما شرعه الله على لسان جميع أنبيائه من أصول فى العقائد والأخلاق وموازين الفضيلة ومبدأ الخضوع لله والاستسلام له . والإيمان بالبعث والنشور والدار الآخرة وما لله من سنة فى إرسال الرسل وإنزال الكتب والملائكة ، وسائر الأصول التى لم تختلف

فيها دين عن دين ، ولا يمكن أن تكون متعددة بتعدد الأمم ، أو متغيرة بتغير الأزمان : « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وماوصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » ١٣ / الشورى - أما الشرائع والمناهج فلها حكم غير هذا الحكم إذ هى متغيرة متطورة بحسب الأزمان واختلاف أحوال المخاطبين بها : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » ٤٨ / المائدة .

ولهذا نرى سورة « آل عمران » تنادى أهل الكتاب بعد أن تسبح هذا السبح الطويل فى شئون الإله والرسالات والدين فتقول : « قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

والإسلام بالمعنى الذى أرادته سورة آل عمران فى هذه الآيات هو الخضوع والانقياد وتقبل حكم الله تعالى فيما شرع من عقيدة وأحكام ، وقد وصف القرآن به كثيراً من الأنبياء ومتبعيهم ، كإبراهيم وبنيه ويعقوب وموسى وعيسى وسليمان ويوسف وغيرهم فى مثل قوله : « ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » ١٣٢ البقرة ، وقوله « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم أن لا تعلوا على وأتونى مسلمين » ٣١/ النمل « قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » ٤٤ النمل « توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين » ١٠١ / يوسف « قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » ٥٢/ آل عمران « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا » ٤٤ / المائدة .

ولما كان الإسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو الدين الذى ختم الله به رسالاته ، وهو الصورة الأخيرة التى رسمت أحكام الله ، والتى إليها يكون الاستسلام والانقياد ، وبها يتحقق الإيمان بالله وبكل ما أنزل ؛ فإن هذا الاسم

اتفق علماً على هذه الشريعة النهائية الخالدة التى انتهى إليها كل ما جاء عن الله .

* * *

٦ — وفى دائرة هذا الغرض أيضاً جاءت آيات متعددة فى مجادلة أهل الكتاب من يهود ونصارى للمسلمين والرد عليهم ، كمجادلتهم فى إبراهيم ، وادعاء يهوديته أو نصرانيته ، مع أن التوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعده ، اقرأوا فى ذلك الآيات من ٦٥ إلى ٦٨ ، وكادعائهم أن لحوم الإبل كانت حراما فى ملة ابراهيم فكيف يأكلها محمد وهو يدعى أنه على هذه الملة ، وقد رد الله عليهم بأن ذلك كان حلالا فى ملة إبراهيم إلى أن حرمه إسرائيل على نفسه ، وإسرائيل هو يعقوب بن اسحاق ابن ابراهيم ، فبقيت تلك الحرمة فى أولاده ، وذكر لهم أن التوراة تشهد عليهم بذلك . وتحداهم أن يبرزوها إن كانوا صادقين . واقرأوا فى ذلك الآيات من ٩٣ إلى ٩٥ ، وكمحاولتهم فتنة المؤمنين بإضلالهم وتدبير المؤامرات لزلزلتهم وتشكيكهم ، وكبيان أن منهم من يستحلون عدم الوفاء بالحقوق للأميين – أى للعرب – وأن منهم من يلوون ألسنتهم بالكتاب تحريفاً واختلاقا – اقرأوا فى ذلك الآيات من ٧٠ إلى ٧٨ .

ونكتفى بهذا القدر من البيان والتفصيل للغرض الأول ثم ننتقل إلى الغرض الثانى .

* * *

وفى دائرة الغرض الثانى : نرى السورة تقرر :

١ — أن هناك فريقا من الناس يكفرون بآيات الله وبهذه الحقائق التى ضمنها كتبه ، وأرسل بها رسله . وأن هؤلاء سوف يعذبون عذابا شديدا .

وبهذا تضع أهل الكفر فى موضعهم ، وتنذرهم بما ينتظرهم من مصير سيء . وهذه هى الآية الرابعة من السورة التى جاءت بعد تقرير الحقائق فى شأن الإله

الواحد الحي القيوم الهادى إلى سواء السبيل : « إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام » .

* * *

٢ — ثم تعود إلى هؤلاء الكافرين الجاحدين بعد ذلك فتشير إلى أن سبب انصرافهم عن الحق ، ووقوفهم فى طريقه هو حرصهم على مظهرى القوة من المال والأولاد ، وأن هذين المظهرين لن يغنيا عنهم من الله شيئا كما لم يغنيا عمن قبلهم — وذلك قوله تعالى : « إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار ، كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب » .

وقد كررت السورة فى موضع آخر عدم إغناء الأموال والأولاد عن أصحابها الكافرين شيئا . وضربت لذلك مثلا مصورا كما ضربت الآيات السابقة مثلا من التاريخ واقعا ، فقال عزوجل «إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » .

* * *

٣ — ثم تجلى أمر هذه المظاهر التى يغتر بها هؤلاء معددة إياها ، مبينة أنها متاع ، وأن الله عنده خير منها ، وأن لله عباداً يؤثرون ما عنده عليها ، وذلك قوله تعالى « زُيِّنَ للناس حُبُّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب ، قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات

تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد » .

* * *

٤ ــ ثم تذكر الغرور والصلف بالأوهام الكاذبة التى لا أساس لها من العلم الصحيح فتقول « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يُدعَون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ، ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون ، فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون »

وبهذا تَبين لنا أن فريقاً من الناس يفترى على الله فى الدين ، ثم يستمسك بما افترى على أنه حق ، ويدركه من الغرور والصلف به ما يجعله يعرض عن دعوة الحق . ويتنكر لها .

* * *

٥ ــ ثم تذكر مظهراً آخر من مظاهر الاغترار بالمال والاعتزاز به وإيثاره، وهو مظهر البخل به ، والضن عن بذله ، ذلك الخلق الذى ينبع عن الأنانية والأثرة وعن القسوة ، والذى يصل أمره أحيانا إلى أن يوقف صاحبه موقف سوء الأدب حتى مع الله الذى أنعم عليه من فضله .

واقرأوا فى ذلك قوله تعالى « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة . ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير . لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا »

ويشير ذلك إلى ما ردوا به على الدعوة البليغة إلى الإحسان والإنفاق ، حيث يقول الله عزوجل: « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسنا فيضاعفه له ، ٢٤٥ البقرة وهو أفظع ما يقود إليه البخل صاحبه ، من سوء الأدب وفجور القول ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيرا .

هذه هى أهم الصوارف التى تصرف عن الحق من اغتر بها ، ومال قلبه إليها مؤثرا إياها ، ومن عرف أن وفد نجران الذى قدم إلى المدينة ، كان يعرف الحق ، وأن رؤساءه من العرب كانوا يتمتعون بألوان من الجاه والمتاع والمال الذى أجراه عليهم ملوك الروم ليستخدموهم فى حرب الإسلام ؛ فإنه يدرك أن هذا الغرض من أغراض السورة ، كان كسائر الأغراض مظهراً من مظاهر التجاوب الذى لبّت به السورة ما تقتضيه الظروف والبيئة التى نزلت فيها .

وقد حذر الله النبى والمؤمنين فى أواخر هذه السورة من الاغترار بهذه المظاهر ، ومن أن يبهرهم ما كان يبدو على وفد النصارى من عز وغنى ، حيث كانوا يلبسون ملابس الحرير ويركبون الخيول المُطَهَّمة ، ونحو ذلك . فقال جل ذكره « لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد » .

* * *

وفى دائرة الغرض الثالث من السورة :

١ — تذكر الطريق الفطرى الطبيعى لمن أراد معرفة الحقيقة ، ذلك الطريق الذى يهتدى معه أولو الألباب إلى أن لهذا الكون ربا ، هو الذى أنشأه واخترعه ، وهو الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، وهو الذى يدبره هذا التدبير المحكم .

واقرأوا فى هذا قوله تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ، ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ، ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد » .

وإذا ثبت فى العقول أن لهذا الكون ربا ، وكان هذا الثبوت نتيجة للتأمل فيه وما يأخذ بالألباب من عظمته وإتقانه ، وحسن تدبيره . ومظاهر هذا التدبير فى كل ناحية من نواحيه ، فإن هذا يكون مبدأ للحكم بأن هذا الرب الخالق المبدع متصف بصفات الجمال والكمال ، وأن صنعته وتصاريفه تشهدان بذلك . كما يكون مبدأ للحكم بأن الذى خلق الكون ودبره ويسره وسخره للإنسان ، لابد أن يكون له بهذا الكون صلة روحية ، وهذه الصلة هى هداية الله الناس عن طريق إرسال الرسل وإنزال الكتب وبيان الحقائق ، وتشريع أحكام العبادة والتعامل ، ثم يأتى بعد ذلك أمام العقول دور الرسل والكتب ، عن طريق البراهين الدالة على صدقهم سواء أكانت هذه البراهين عقلية أم حسية . وبهذا تتسلسل المعرفة بالحقائق ، ويتقرر الأمر فى الألوهية وصفاتها وما يصدر عنها من دين .

هذا هو الطريق الفطرى الذى رسمته السورة لمعرفة الحقيقة : يبتدىء من النظر فى الكون ، وحكم العقل بأنه صنعة متقنة ذات تصاريف وتفاصيل عجيبة لا يمكن معها أن يكون قد جاء من طريق المصادفة والاتفاق ، بل لابد أن يكون قد صنعه صانع قوى قادر حكيم موصوف بكل صفات الكمال . . . الخ وينتهى بالإيمان بالرسالات والكتب والأديان .

وقد سلم هذا الدليل من تعقيدات المتكلمين ، ومن فلسفة المتفلسفين ، وجاء طبيعيا إنسانيا يطيقه كل عقل ، ولا ينبو عنه أى تفكير ، وإننا لنراه مذكوراً فى القرآن الكريم فى مئات المواضع ، ونراه موجها إلى الأولين . كما هو موجه إلى الآخرين .

* * *

٢ — وتذكر السورة طريقاً آخر تريد به أن تضمن لمن يسلكه الحصانة من الزيغ والضلال ، وتريد به أيضاً الرد على ما يتمسك به المضلون من ألفاظ أو تراكيب أو تعبيرات واردة فى الكتاب الكريم على نحو من التشابه ، وذلك

ما جاء فى قوله تعالى « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب ، ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد » .

وقد كان النصارى الوافدون من نجران يتمسكون بأن الإسلام يعبر عن عيسى بأنه كلمة الله وروح منه ، ويقولون حسبنا هذا التعبير فى أن عيسى من الله أو ابن الله ، بل منهم من كان يقول إنه هو الله ، لأن الله روح ، وعيسى روح منه . والله لا يتجزأ . وكانوا يتمسكون بنحو « أنزلنا » و« خلقنا » و« نحن » وغير ذلك مما عبر فيه بضمير الجمع ، فيأخذون منه أن الآلهة ثلاثة — كما قدمنا —

فهذه الآية تعرفهم أن هناك آيات متشابهات ، وأنهم لو كانوا مؤمنين لأرجعوا ما يتشابه عليهم إلى المحكم الواضح الذى لا اشتباه فيه ، مثل قوله تعالى « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » ولكنهم إنما يستمسكون بظواهر المتشابهات لما فى قلوبهم من الزيغ فهم يتبعون هذا اللون يبتغون به الفتنة ويبتغون تأويله على ما يوافق أقوالهم الباطلة .

والذى يفعله هؤلاء النصارى يفعله غيرهم من كل من ابتغوا الفتنة أو تطلبوا التأويل على ما يريدون ، وهذا من أسباب ظهور كثير من المقالات الكلامية ، وكثير من الاعتراضات الموردة على القرآن ، فمن الناس من يتساءل عن مثل قوله تعالى « ختم الله على قلوبهم » أو « من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم » أو « وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون » من كل ما لو أخذ على ظاهره لأفاد أن الناس مجبورون لا خِيَرَةَ لهم

فى الهدى إذا اهتدوا ، ولا فى الضلال إذا ضلوا ، فيقولون كيف إذاً يحاسب الناس يوم القيامة على الهدى والضلال وهى ليست أعمالا لهم ، وهذه المسألة وأمثالها قد اشتغل بها الناس من قديم وكثرت حولها المجادلات ، واختلفت فيها المذاهب الكلامية . والصراط المستقيم فيها هو رد ما يتشابه من الآيات إلى المحكمات الواضحات التى هى أصل الكتاب وأمه التى يرجع إليها ، مثل قوله تعالى « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا » فهى واضحة فى أن الصرف عن الآيات إنما يكون للمتكبرين فى الأرض ... الخ فهو ثمرة وعاقبة للتكبر وما عطف عليه من صفات التمرد . وكذلك قوله تعالى « يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً ، وما يضل به إلا الفاسقين » فالإضلال إنما يقع على الفاسقين ، وإذن فهو تعبير عن استتباع كل عمل نتيجته وثمرته ، فنتيجة الفسق وثمرته هى الضلال إذ هو يؤدى إلى سواد القلب وغشيته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن . وقبيحا ما ليس بالقبيح « وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » .

وهذا الموضوع طويل ، والبحث فيه دقيق ، وقد نعرض له بأكثر من هذا تفصيلا عند تفسير الآية إن شاء الله تعالى .

٣ — وينبغى أن نلتفت إلى أن كلا من قوله تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض . . الخ » وقوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب . . » الخ قد اشتمل على دعاء علمه الله المؤمنين ، وأرى أن لهذا مدخلا فى كل منهما ، فالذى يريد أن يعرف الحقيقة إذا فكر فى خلق السموات والأرض ورأى ما فيها من آيات بينات ، وشواهد قاطعات ، اتجهت نظرته إلى الوقوف من خالقها موقف الخضوع والخشوع والاعتراف بالعظمة ، والمرء إذا وصل إلى هذه الحالة تحول قلبه إلى الدعاء والتماس الخير ممن آمن به ، وشاهد عظمته ، والدعاء كما يقولون مخ العبادة ، وصوت الإيمان . وكذلك حال

المؤمن الصادق الذى تتشابه عليه بعض الآيات من كتاب ربه : نراه يتجه إلى الله بعد الإقرار بأنها من عند الله ، سائلا إياه أن يعصمه من أن يزيغ قلبه بعد أن هداه ، وأن يهب له من لدنه رحمة ، ثم يناجيه بما يؤمن به من لقائه ، يوم يجمع الناس ليوم لا ريب فيه ، وفى ذلك إقرار وخوف ورجاء .

* * *

وفى دائرة الغرض الرابع : نرى السورة ترسم الطريق الذى إذا سلكه المؤمنون ، نجحوا واستقامت حياتهم . وقد بينت السورة معالم هذا الطريق فى نداءات متتابعة للمؤمنين تشتمل على أهم الأسس التى يجب أن يقيموا عليها بناءهم . ويتخللها حديث عن بعض الوقائع والحوادث والمسائل التى كانت تشغلهم ، مما ينبغى أن يتخذوا منه عبراً تفيدهم فى حياتهم ، ومما يحتاج بعضه إلى نصيحة وتثبيت من الله لهم .

ونحن نعرض لهذه النداءات وما يتخللها ، فى شىء من الإيجاز .

النداء الأول .

« يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم » .

١ — تقدمت الإشارة الى أن هذه الآية نزلت فى حادثة شاس بن قيس الذى أراد إفساد الأمر بين الأوس والخزرج ، وتذكيرهم بما كان بينهم فى الجاهلية . وإنشادهم ما كان يقوله بعضهم فى بعض من الشعر . وقد كاد هذا الحادث يعصف بصفاء المدينة . ويعيد الحرب جذعة بين هذين الحيين العظيمين قديما . بعد أن أبطل الله الخصومة والعداوة بينهما بالإسلام ، ولولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

أدرك الأمر ، وذكر الفريقين وتلا عليهما كتاب الله وما أنزله فى هذا الحادث، لتفاقم الخطب ، وعظم الأمر .

وأرجح أن النداء الثانى بعد هذا يتصل بهذا الحادث أيضاً ، لأن فيه قوله تعالى « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » وهذا ينطبق تمام الانطباق على حالة الأوس والخزرج .

٢ — فى هذا النداء تنبيه الى ما يجب أن يكون معروفا من حرص الأعداء على التفريق بين المؤمنين ، فهم يرغبون دائماً فى الاصطياد فى الماء العكر كما يقال فى التمثيل ، ولا يستريحون الى أن يروا المؤمنين كتلة واحدة لأنهم حينئذ يقفون أمام هذه الكتلة عاجزين متحيرين ، والموقف الصحيح للمؤمنين أمام هذا هو تجاهلهم وعدم الإصغاء إليهم ، وعدم طاعتهم فيما يحاولونه من إحياء أضغانهم ، ودفع بعضهم الى إيقاد أسباب العداوة بينهم .

والسورة تعبر بقولها « إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب » ولا تقول : إن تطيعوهم فى كذا بخصوصه ، لتكون القاعدة عند المؤمنين هى عدم الركون إليهم فى شيء ما . وعدم طاعتهم فى أى أمر ، وبذلك يقفون منهم موقف الحذر والتخوف من دسائسهم وفتنهم . وتلك هى السياسة الصالحة فى كل زمان ومكان . والتى تأخذ بها الأمم والدول لتأمن كيد أعدائها ، وتتجنب ما ينصبونه لها من الأحابيل ، ثم إن هذه الأحابيل قد تكون سياسية وقد تكون ثقافية ، وقد تكون خلقية ، إلى غير ذلك مما يتوسل به الأعداء لإفساد الأمر على أعدائهم . وزلزلة بنيانهم .

والآية مع هذا تحكم حكما منصفا ، فلا تجعل هذا التحذير من أهل الكتاب عامة ، وإنما تجعله من « فريق » منهم ، أولئك هم أهل الدسائس والفتن ، والذين

جعلوا إفساد الشعوب دينهم ، واتخذوه وسيلة للقضاء عليهم ، والتمكن منهم ، وهذا يشعر بأن من أهل الكتاب فريقاً آخر يمكننا أن نطمئن إليهم ، وأن نقيم معهم علاقات مخلصة ، وأولئك هم الذين لا يريدون بنا مكرا ، ولا يتخذون الوسائل لخداعنا ، والتفرقة بين هؤلاء وهؤلاء موكولة إلى قادة الأمة وأولى أمرها ما داموا مخلصين أقوياء ذوى بصر بالحياة ، وعلم بالسياسة الرشيدة .

والقرآن يفرق دائماً بين الصنفين من أهل الكتاب ،وفى هذه السورة من ذلك قوله تعالى : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائما » « وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب » « وقالت طائفة من أهل الكتاب » « ليسوا سواء : من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل » « وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم » فكل هذه الآيات فيها إنصاف ، وفيها قصد فى الحكم واحتياط فى التحذير ، وبرهان على أن الإسلام لا يبغى تعصبا ، ولا يريد أن يعادى إلا من يعاديه ، وفيها فى الوقت نفسه تعويد للمسلمين على المرونة مع الاحتياط ، وعلى أن يفرقوا بين قوم وقوم ، وألا يتخذوا الناس كلهم أعداء فيصيروا بذلك فى عزلة عن العالم ، وألا يأمنوا جانب كل فريق ولو كان من دأبه مخادعتهم والعمل على زلزلة مجتمعهم ودينهم وأخلاقهم ، فإن فى هذا غفلة لا تليق بالمؤمنين .

وفى هذا النداء إشعار بأن طاعة العدو فى شأن الفرقة والقطيعة وإحياء الفتنة مؤدية إلى الكفر بعد الإيمان ، وأن على المؤمنين أن يحتاطوا ويعتصموا بحبل الله ، فيرجعوا إلى كتابه الذى يتلى عليهم ، وإلى رسوله إن كان بينهم ، وإلى سنته ومبادئه إن لم يكن فيهم بشخصه ، فهذا وذاك اعتصام بالله ، « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

النـــداء الثانى :

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ، ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » .

صُدِّر هذا النداء بتلك الآيات ، واستمر فيما تلاها إلى الآية ١١٧ ، وكان مما جاء فيه قوله تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر و تؤمنون بالله ، ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم ، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » .

وهذا النداء يتضمن حقائق وأسسا ترجع إلى ما يأتى :

١ ــ الأمر بالتقوى ، والتقوى هى الخلق الذى يجعل من صاحبه إنسانا يخشى الله ويراقبه فى السر والعلن ، ويعرض كل أعماله على نفسه اللوامة المحاسبة ليعرف هل أرضى الله أو أغضبه ، إنها هى الضمير الحى ، والرقيب الذى لا يفارق صاحبه أينما كان ، وليست هى المحافظة على مظاهر العبادة والورع فحسب ، وإنما هى التزام السلوك السليم فى كل ما يأتى المرء وما يدع ، وإذا فشا هذا الخلق فى مجتمع فإنه يكون مجتمعا سعيدا ، لأن أفراده يعرفون ما عليهم أن يفعلوه ، وما عليهم أن يتركوه ، ولا يحتاجون إلى رقابة من السلطة والحكومة ، فحسبهم رقابة ضمائرهم ، وبذلك تقل الجرائم ، بل تقل الأخطاء ، ويكثر التعاون ، ويعيش الناس فى ظلال المحبة والألفة إخوانا متصافين .

٢ ــ وجوب الحرص على الدين الحق ، وأن يعمل المؤمن على ألا يلاقى ربه

إلا وهو مسلم له ، خاضع لعظمته ، مستمسك بأمره ونهيه : « ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » ومعنى الحرص على ألا تموت إلا وأنت مسلم ، أن تظل مستمسكاً بحبل الإسلام فى كل لحظة من لحظات حياتك حتى إذا أدركك الأجل لم تخرج من الحياة إلا مسلما .

٣ — الأمر بأن تعتصم الأمة كلها بحبل الله ، وألا تتفرق ، فإن الاتحاد حول مبادىء الصلاح والخير قوة لا تعدلها قوة ، وقد ذكرتهم الآيات فى ذلك بما كان من أمرهم فى الجاهلية حين كانوا متفرقين ضعفاء بأسهم بينهم شديد ، وأنهم كانوا على وشك أن يهلكوا ، وأن تأتى عليهم نيران العصبية والعداوة فتفنيهم لولا أن الله أنقذهم .

وقد جاء النهى عن التفرق أيضا فى آية مستقلة من آيات هذا النداء فيها تحذير للمؤمنين من مصير كمصير أهل الكتاب الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات .

والتفرق الضار المنهى عنه هو التفرق فى الدين والأصول التى بناه الله عليها ، ومن التفرق فى الدين وأسسه التفرق بالعصبيات ، وأن تكون الطائفية هى أساس قبول ما يقبل ورفض ما يرفض ، ومن صور ذلك : التفرقُ بالأهواء ، بأن يتخذ الناس أهواءهم حكما فى الدين والشريعة ، معرضين عما يقضى به الكتاب الكريم والسنة المطهرة والأصول التشريعية المستنبطة منهما ، فالله تعالى يقول « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

أما التفرق فى الفقه والأحكام والنظريات العلمية فليس من التفرق المنهى عنه ، إنما ينهى عما قد يلابسه من عنف ولجاج وشدة فى الجدال تورث الشحناء والبغضاء . وقد اختلف الصحابة والأئمة وكبار العلماء فى مذاهبهم، وكان كلٌ يحترم صاحبه وينظر فى رأيه ، ولا يراد خارجا على النهى فى قوله تعالى « ولا تفرقوا » .

٤ ــ أمر الأمة بأن تكون داعية إلى الخير ، آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر ، وتقرير أن هذا الخلق هو أساس الفلاح ، ومن تأمل فى هذا وجده يطلب إلى الأمة فى قوة أن تكون صاحبة فكرة ودعوة تدعو إليها وتعمل لها ، وهى دعوة الخير المطلوبة بقوله « يدعون إلى الخير » وأن يكون فيها رأى عام متوجه إلى المعروف ، أى إلى كل ما هو صلاح واستقامة ونفع وهدى ، نافر عن المنكر ، أى عن كل ما هو فساد وسوء واعوجاج وضرر والتواء ، والأمة إذا كانت على هذا النحو فهى الأمة المفلحة ، أى الناجحة السعيدة الآمنة المطمئنة ، فإن الفلاح فى الأمم هو سعادة أبنائها وأمنهم واستقرار شئونهم ، أما الأمم التى لا يكون لها دعوة وفكرة من الخير تدعو إليها ، ولا يكون فيها رأى عام مهيب حريص على مبادىء الحق والسلوك القويم ؛ فإنها لا تفلح ، أى لا يسعد أفرادها ، ولا تكون أمة آمنة مستقرة .

٥ ــ أن هذه الأمة هى خير أمة أخرجت للناس ، ولكن ليس ذلك إلا بأنها أمة مبادىء ، فهى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وذلك رمز استقامتها . ومبدأ عظمتها ؛ وهى مع ذلك تؤمن بالله ، والإيمان بالله هو مبدأ الشعور بالكرامة لأنك تعتقد أنك مساو لكل من سواك من الناس فى أنكم جميعاً مربوبون لله ؛ وهو مبدأ المراقبة والتقوى ، لأن الذى يعلم أن له إلها يراه هو الذى من شأنه أن يراقبه .

٦ ــ وقد جاء فى آيات هذا النداء غير ذلك مما يتصل بأغراضه ، ومما أريد به الموازنة بين المسلمين وأهل الكتاب صالحيهم وطالحيهم من خير أو شر ـ فاقرأوا الآيات من آية ١٠٣ إلى آية ١١٧ .

النداء الثالث :

« يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودُّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات إن كنتم

تعقلون . هأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ، قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ، إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط » .

١ — هذه الآيات تصف فريقا من الذين كانوا فى المدينة مخالطين للمسلمين . من أهل الكتاب ومن المنافقين ، وتحذر المؤمنين من أن يعتمدوا عليهم فى شىء من شئونهم التى يكونون فيها بطانة وحاشية وأتباعا ، وكأن آيات النداء الأول فى التحذير من اتباع الأعداء وطاعتهم وأن ينزلوا على أمرهم أو مشورتهم فى شىء ما ، أما هذا النداء فتحذير من أن يتخذوا منهم أتباعا يأتمنونهم على شئونهم ، ويبيحون لهم مداخلتهم فى أمورهم ولو ما صغر منها ، وبذلك يكون التحذير شاملا لطرفى الأمر ، فلا يتبعون الأعداء ، ولا يتخذونهم أتباعا .

والنهى فى هذا شامل لأهل الكتاب والمنافقين ، لأن التعبير بقوله «من دونكم» يفيد ذلك ، وفيه دلالة على أنه يحرم على الرؤساء والقائمين بشئون الأمة أن يولوا أحدا من غير المؤمنين بأهدافهم ودعواتهم عملا من الأعمال يمكنهم معه أن يعبثوا ويسيئوا إلى الأمة فى الخفاء ، فإن ولاية الحكم أمانة ، وبطانة الحاكم أمناؤه وأمناء الأمة ، فلا يصح أن يؤتمن إلا من هو جدير بأن يؤتمن .

٢ — ذكر الله تعالى فى تعليل النهى عن أن يتخذ المؤمنون بطانة من دونهم ، عددا من الصفات التى تكشف حقيقة هؤلاء المنهى عنهم ، فذكر أنهم لا يألون المؤمنين خبالا ، أى لا يدخرون وسعا ، ولا يقصرون فى إدخال الفساد عليهم ، فإن الخبال هو الفساد ، وذكر أنهم يودون عنت المؤمنين أى وقوعهم فيما يشق عليهم ويرهقهم ، وذكر أنهم يبدون بألسنتهم قول السوء ، ويثيرون على المؤمنين إرجافا وحربا بالكلام وإشاعة الباطل ، وأن ما تخفى صدورهم من العداوة والبغضاء أعظم .

وهذه الجمل المتضمنة لهذه الصفات قد جاءت فى سياق الوصف والنعت لهم ، وتقدير الكلام فيها : لا تتخذوا بطانة من دونكم موصوفين بهذه الأوصاف ، ويصح أن تحمل على أسلوب الاستئناف المسوق للتعليل ، وتقدير الكلام : لا تتخذوا بطانة من دونكم ، إنهم لا يألونكم خبالا . . الخ

وسواء أكان هذا هو التقدير أو ذاك ؛ فإن الكلام يفيد أن النهى خاص بمن يُعلم منهم عداوة المسلمين على هذا النحو ، وليس عاما فى المخالفين فى الدين مطلقا ، وهذا هو الذى يتمشى مع روح القرآن فى التفرقة بين فريق وفريق من المخالفين ، وقد كان المسلمون فى الفترات الأولى من تاريخهم يطبقون ذلك :

فهذا عمر يروى عنه أنه آخذ أبا موسى حين علم أنه اتخذ ذميا كاتبا له ، وقال له : لا تدنهم وقد أقصاهم الله ، ولا تكرمهم وقد أهانهم الله ، ولا تأمنهم وقد خونهم الله ، وقال : لا تستعملوا أهل الكتاب فإنهم يستحلون الرّشا ، واستعينوا على أموركم وعلى رعيتكم بالذين يخشون الله تعالى ، وقيل له : إن ههنا رجلا من نصارى الحيرة لا أحد أكتب منه ولا أخط بقلم ، أفلا يكتب عنك ؟ فقال لا آخذ بطانة من دون المؤمنين .

ومع ذلك نراه يتخذ رجال دواوينه من الروم ، ونرى الخلفاء من بعده وملوك بنى أمية والعباسيين والأندلسيين يعملون مثل ذلك . لأنهم فهموا أن المعول عليه هو هذه الصفات ، فإن وجدت ـ ولو فى المسلمين ـ منعت من ائتمانهم على مصالح الأمة ، ولا يكفى مجرد المخالفة فى الدين .

وإنما اختلف فعل عمر لأن أهل الكتاب فى أول الأمر كانوا حانقين على المؤمنين ، مغيظين من دولتهم ، فلما هدأت الأمور واستقرت زال منهم ذلك ، وقد تكون علة الاختلاف أنه لم يأمن نصارى الجزيرة أو نصارى الحيرة أو أفرادا منهم معروفين له ، بينما استراح إلى غيرهم من أبناء الروم الذين لم تبد منهم صفات العداوة للمؤمنين ، ومع هذا فهو لم يولهم من الأمر ما يتصل بسر

من أسرار المسلمين ، أو مرفق من مرافقهم التى يمكنهم العبث بها لو كانوا ينتوون السوء .

٣ — وقد قررت الآيات بعد ذلك واقع هؤلاء الذين كانوا يعاصرون النبى والمؤمنين فى المدينة من اليهود ، فذكرت أن حالهم وحال المؤمنين تختلفان : فالمؤمنون يحبونهم ، وهم لا يحبون المؤمنين ، وإنما كان حب المؤمنين إياهم رحمة ورعاية للجوار ، فكانوا يصافونهم ويحسنون عشرتهم ويبرونهم ، وقد أخرج ابن اسحق وغيره فى سبب نزول هذه الآيات عن ابن عباس قال : «كان رجال من المسلمين يواصلون رجالا من يهود . لما كان بينهم من الجوار والحلف ، والمؤمنون مصدقون بالكتاب كله ، بينما هؤلاء اليهود يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، والمراد بالكتاب ـ فيما أرجح ـ جنس الكتاب ، أى أن المؤمنين مصدقون بجميع ما أنزل الله من الكتب ، واليهود يفرقون بين كتاب وكتاب ، فلا يؤمنون بالقرآن ، ثم هؤلاء اليهود وحلفاؤهم الخفيون فى محيط المؤمنين يتخذون أسلوب النفاق والخداع ، فيتظاهرون بالإيمان وهم فى حقيقة أمرهم كافرون . فإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليهم الأنامل من الغيظ .

والله تعالى يأمر نبيه بألا يكترث بغيظهم، ولايهتم بما يأكل قلوبهم من الحقد . فيقول له : قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ، أى دعهم يحترقون من الغيظ ويموتون به ، وسر أنت فى طريقك .

وبعد هذا استمرت الآيات فى الكشف عن نواياهم وعداوتهم التى تبرر الحيطة واتخاذ الحذر فى أمرهم . فذكرت أنهم يسيئهم ما يمس المسلمين من حسنة . ويفرحهم ما يصيبهم من سيئة .

ثم ذكرت العلاج الناجع الذى يجدر بالمؤمنين أن يعالجوا به هذه العداوة

المسفرة ، وهو يتلخص فى الصبر والتقوى ، فإن الصبر احتمال وضبط للأعصاب وهو يحسن حين يكون الأمر فى يدك ، ويريد عدوك أن يستفزك لتتصرف تصرفاً يمكنه منك ، فعندئذ يكون الصبر أنجح ، لأن الزمن فى مصلحة الصابر حين يكون فى يده الأمر ، وكذلك التقوى ، فإن من ملك أمره ، عليه أن يحافظ على ما ملك ، ويتجنب كل ما من شأنه إفساده من جانبه .

وهكذا يتبين أن الآيات فى هذا النداء تنهى المؤمنين عن اتخاذ الأعداء المخاتلين الماكرين بطانة وأتباعا يركنون إليهم فى شئونهم وأنها تصف لهم حالة هؤلاء الأعداء وواقع أمرهم معللة لهذا النهى ومبينة سره ، وأنها تختم بوصف إجمالى للعلاج الناجع فى شأنهم .

٤ — وقد أتبعت آيات هذا النداء بآيات غايتها تثبيت المؤمنين ، وتركيز شئونهم ، وتذكيرهم ببعض مواقعهم الحربية ، وما ينبغى أن يدركوه وينتفعوا به من عبرها ودروسها .

فجاء فيها ذكر غزوة أحد ، وتذكير الرسول صلى الله عليه وسلم بما كان من الاستعداد لها ، والخلاف فى شأنها ، إذ أصبح ينظم جيش المؤمنين ، ويحدد مواقفهم ، وإذ كان الجو يومئذ جو خوف واضطراب بعد انسحاب عبد الله ابن أبى بن سلول بثلاثمائة رجل غاضبا ، حيث خولف رأيه حين أشار بالقعود والقتال فى المدينة إن نهض إليهم العدو ، وكان رأيه وافق رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأبى ذلك أكثر الأنصار ، ولكن النبى عمل برأى الجمهور من أصحابه إقامة لقاعدة الشورى التى أمره الله بها ، وهمت طائفتان من المؤمنين أن تفشلا أى تجبنا لولا أن الله ثبتهما ، وهما بنو سلمة من الخزرج ، وبنو حارثة من الأوس ، وكانا جناحى العسكر يوم أحد ، وفى البخارى عن جابر قال : فينا نزلت « إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما » قال . نحن الطائفتان — بنو حارثة وبنو سلمة — وما نحب أنها لم تنزل ، لقول الله عز وجل « والله وليهما » .

ومن أراد أن يفهم الآيات التى تتحدث عن هذه الغزوة فليرجع إلى تفاصيلها فى السيرة ؛ فإن حوادثها ستجلى له هذه الآيات تمام التجلية . وقد أشير فيها إلى نصر الله المؤمنين يوم بدر ، موازنة بين حالهم فى الغزوتين ؛ وضربا لمثلين فى النصر والهزيمة ، وتطبيقاً لقوله تعالى « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا » أى : واعتبروا فى ذلك بأنكم صبرتم واتقيتم فى غزوة بدر فنصرتم ، وخرجتم على أمر النبى فى غزوة أحد وفاتتكم التقوى والصبر أمام إغراء الغنائم فانهزمتم .

وجاء فى أثناء الحديث عن ذلك :

النـــداء الرابع :

« يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون ، واتقوا النار التى أعدت للكافرين ، وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون . وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ـ ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ ـ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين »

والغرض من هذه الآيات هو وضع الأساس الذى تقوم عليه علاقة المؤمن بغيره من ناحية التعامل المالى أو الأدبى ، وعلاقة المؤمن بربه من حيث الطاعة والعصيان والتوبة .

ولا شك أن الإنسان محتاج إلى معرفة الأساس الذى يقوم عليه أمره فى هذين الجانبين ، ليكون ذلك مبدأ له فى التصرف والسلوك يسير عليه ، ويهتدى به ، ومن شأن ذلك أن يقيم أساساً من أسس الصلاح والاستقامة فى المجتمع :

فأما علاقة الإنسان بغيره ، فالآيات ترشد إلى الخطة الفاضلة فى ذلك ، وهى

أن يكون الإنسان باذلا مضحيا فى سبيل من يعيش بينهم بقسط من ماله ومن نفسه، لا أن يكون أثرا أنانياً مستغلا يعيش على ابتزاز جهود الآخرين ، ولا تتحرك فى قلبه عواطف الرحمة والبر بهم .

١ — فأول ذلك أنها نهت عن الربا ، وصوّرته بالصورة التى كان عليها التعامل فى مجتمعهم ، وساقته فى سياق الحديث عن مفاسد اليهود ومطامعهم ، وبعد النهى عن طاعتهم فى شىء من الأمر ، أو الاستعانة بهم فى شىء من الأمر، فكأن الآيات تقــول للمؤمنين : لا تطيعوهم فى شأن من شئونكم ، ولا تستعينوا بهم فى أمر من أموركم ، ولا تفعلوا ما هو مشهور عنهم من الربا واستغلال حاجة المحتاج وتحميله أضعافاً مضاعفة بسبب دينه .

والربا مظهر من مظاهر الجشع والطمع والأنانية والاستغلال، وهو — ولاسيما إذا كان أضعافا مضاعفة — شعار ذوى البطالة والكسل الذين يعيشون على ما تكسبه أموالهم ، لا على ما يبذلونه من جهود يفيد منها المجتمع . والإسلام يريد الناس عاملين ، يقدم كل منهم جهوده ليعيش مؤثراً فعالا . وليحس به مجتمعه ، ولا يريد الناس كسالى معطلين يسترون كسلهم بدراهمهم ودنانيرهم ، فلا يقدمون جهوداً ، ويختلسون عيشهم من جهود غيرهم .

وقد كانت هذه الآية أول ما نزل فى تحريم الربا . أما آيات الربا فى سورة البقرة فهى آخر ما نزل فى ذلك ، ولهذا يمكننا أن نفهم معنى « أضعافاً مضاعفة » على وجهين من الفهم :

أحدهما : أن قيد الأضعاف المضاعفة إنما جىء به للتنفير من الواقع الذى كان ، حيث يصير المدين إلى دفع أضعاف كثيرة تحت ضغط حاجته وفقره ، فهو يثير فى نفوسهم الاشمئزاز من هذا الاستغلال المرهق الذى لا يعرف الرحمة والرفق .

والآخر : أن ذكر الأضعاف المضاعفة كان للتدرج فى التشريع . كما كان هذا التدرج فى تحريم الخمر . فالله قال فى شأنها أولا : « يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » ففهم بعض الناس من ذلك تحريمها لأن فيها ضرراً أكبر من نفعها ، والنفع القليل يترك فى جانب الضرر الكبير ، ولكن ذلك لم يكن نصا . ثم قال لهم « لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ففهم العارفون من ذلك أنه تحريم . لأن آثار السكر عادة تبقى متسلطة على من شرب الخمر مدة يضيع بها الوقت المشروع لأداء الصلاة ، فإنْ شربها وقتاً ما ، فلا يستطيع أن يفيق من سكرها إلا بعد فوات وقت صلاةأو صلوات . وقد حرم عليه أن يصلى وهو سكران ، وإذن فسوف لا يؤدى الصلاة فى وقتها ، وقد ارتكب بذلك حراما . فما أدى إلى هذا الحرام - وهو شرب الخمر - حرام . لكن ذلك أيضاً ليس بنص ، وإنما هو استنباط ، فلما قال الله تعالى « يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » كان هذا نصاً حاسماً ، جاء بعد تدرج فى التشريع .

فكذلك يمكن أن يقال هنا : إن الله حرم أولا من الربا ما يكون أضعافا مضاعفة تدرجا بهم ، ثم حرم قليله وكثيره فى سورة البقرة حيث يقول « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوابحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون » .

ومهما يكن من شىء فقد وضعت الآية بهذا - أى بتحريم الربا - مبدأ حرمة استغلال حاجة المحتاج لما فيها من أثرة ، ولما تؤدى اليه من تعطيل القوى والجهود اكتفاء بما يمكن اكتسابه عن طريق الربا .

(٢) وبعد هذا أمرت الآيات بتقوى الله التى يرجى معها الفلاح ، ويتجنب

النار التي هي دار العقوبة والعذاب ، عن طريق تجنب العصيان والخروج على أمر الله ، وأمرت بطاعة الله والرسول ، لأن ذلك هو الذي يرجى معه الرحمة ، وأمرت بالمبادرة إلى طلب المغفرة من الله ، والجنة التي أعدها الله للمتقين ، ثم وصفت هؤلاء المتقين بأوصاف :

١ً — وصفتهم بالإحسان المنبعث عن التضحية والإيثار ، فهم ينفقون — هكذا على الإطلاق — من أموالهم ، من جهودهم ، من أفكارهم ، من جاههم ، من كل ما أنعم الله به عليهم ، ولا تقتصر نفقتهم على حال دون حال ، بل ينفقون في السراء والضراء ، في الضيق والسعة ، من القليل والكثير ، ولا تقوى مبررات الشح من الأزمات العامة أو الخاصة على تعطيل دوافع البذل والتضحية فيهم .

٢ً — ووصفتهم بأنهم « كاظمون الغيظ » فلا تضطرم قلوبهم بنيران الغضب أو الحسد أو الحقد على الناس .

٣ً — ووصفتهم بأنهم « عافون عن الناس » والعفو منزلة لا يدركها إلا أولو العزم : لأنه لا يكون إلا عند المقدرة . والمقدرة من محركات الغرائز الوحشية الكامنة في الإنسان ، بمقتضى الحيوانية ، فإذا قهر المرء نفسه عند تحرك هذه الغريزة فقد وصل إلى ذروة الإحسان .

٤ً — ووصفهم بأنهم رجاعون إلى ربهم لا ينقطع أملهم فيه وإن أذنبوا ، فهم توابون .

وإذن فليس المتقي هو الذي لا يأتي الذنب أصلا : وإلا لكان ملكا كريما من الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وإنما المتقي هو الذي إذا وقع في الذنب خطأ أو عمداً ، عاد على نفسه باللوم ، ولم ييأس من رحمة ربه ، وتاب من ذنبه واستغفر ، وفي ذلك تقول آية أخرى « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » .

وهكذا يجلو لنا القرآن بمثل هذه الأوصاف حقيقة التقوى ، ويبين لنا أنها صفة واقعية لا ينافيها ما طبع عليه الإنسان من ضعف ، لا صفة خيالية يبالغ فى مقتضياتها ويصورها لنا عزيزة المنال ، تقصر عن إدراكها الآمال.

ومما ينبغي أن يُلتفت إليه فى هذا المقام: تلك الجملة الاستفهامية الاعتراضية التى جاءت فى سياق طرد اليأس عن قلوب المذنبين ، وهى قوله تعالى « ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ » فهى تشير إلى أنه لا وساطة فى الإسلام بين الله وعباده ، وكأنها توازن بين هذا المبدأ وما زعمه أهل الكتاب الذين يحاجون الرسول فى الدين ، من أن المذنب لا يصل إلى غفران ربه إلا عن طريق القسيس أو نحوه.

وبهذا يتبين أن الآيات قررت هذه المبادىء كأسس لبناء صالح فى النواحى التى تعالجها ، وهى :

(١) لا استغلال لحاجة المحتاج ، ومن ثمَّ لا ربا.

(٢) الإحسان والإيثار هو قاعدة التعامل بين الناس.

(٣) تقوى الله وطاعة الرسول يجب أن يكونا شعار المؤمن.

(٤) الذنب قد يقع من المتقى ، والله يقبل توبة التائبين الذين يذكرونه ويستغفرونه ولا يصرون على ما فعلوا.

(٥) ليس بين الله وعباده وساطة فى طلب الغفران.

* * *

وجاء بعد هذا الأساس الذى وضعته الآيات السابقة فى جانب علاقة المؤمن بمجتمعه ، وعلاقته بربه — جاء بعد هذا آيات ترمى إلى تثبيت المؤمنين ، وتوقيفهم على العبر التى يجب أن يستخلصوها من هزيمتهم أو نصرهم وما كان لها من نتائج ، وتلك هى الآيات من ١٣٧ إلى آخر السورة ، مع ما يتخلل ذلك من موضوعات

أخرى تنتهز السورة الفرصة لبيانها على عادة القرآن من التنويع والترويح والاستطراد المفيد .

ومما جاء فى هذه الآيات تثبيتاً للمؤمنين :

(١) تنبيههم إلى أن لله سنناً قد خلت ولا يمكن أن تتخلف ، ومن سننه أنه يجعل العاقبة للمؤمنين على المكذبين : « قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلَوْنَ إن كنتم مؤمنين » .

(٢) تنبيههم إلى أن المشاق التى يتحملونها فى سبيل دعوتهم ليست قاصرة عليهم ، بل إن أعداءهم يتحملون مثلها ، فالأمر مشترك . والصابر هو الذى يفوز بالنصر : « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس » .

(٣) بيان الحكمة فى جعل المؤمنين حملة للدعوة ، ومجاهدين فى سبيلها وهى إظهار إيمان المؤمنين ، وتمكينهم من أن يكون منهم من يفوز بمنزلة الشهادة ، وهى منزلة كريمة تعشقها النفوس الكريمة ، وبالجهاد أيضا يمحق الله الظالمين والكافرين ، ويمحص المؤمنين ، . . الخ : « وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ، وليمحص الله الذى آمنوا ويمحق الكافرين ، أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » .

(٤) تذكيرهم بما رأوه من الهول الذى وصل بهم إلى خطر الموت يوم أحد ، وأنهم كانوا يتمنون الموت جهادا فى سبيل الله قبل هذا اليوم ، فقد رأوه رأىَ العين ، فلا ينبغى أن يضطربوا « ولقد كنتم تمنون الموت . . » الآية .

(٥) تذكيرهم بأن محمدا ما هو إلا رسول كسائر الرسل من قبله ،

وأنه معرض للموت والقتل كسائر البشر . فلا ينبغي أن يحدث بموته أو قتله اضطراب في صفوف المؤمنين أو انقلاب : « وما محمد إلا رسول . . . » .

وهكذا تستمر الآيات في تثبيت المسلمين وتذكيرهم على هذا النحو الذي يمكنكم متابعته إذا تلوتم الآيات .

ومما جاء استعراضا لموقف الحرب بين المسلمين والمشركين يوم أحد : « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم ، فأثابكم غَمّاً بِغَمّ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون » .

وفي حوادث الغزوة الموضحة في السيرة ما يفسر هذه الآيات ، ويبين مقاصدها كما قلنا .

ومن تثبيت المؤمنين والرد على شبه المرجفين فيهم ما عرضت له السورة من مثل : « لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا . قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » ، « يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غُزَّى : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ، ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم ، والله يحيي ويميت ، والله بما تعملون بصير ، ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ، ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون » .

وفي تلك الآيات إصلاح للنفوس التي تراودها أحيانا شبهات من تلبيس الشيطان ، أو تخذيل أعداء الرحمن . فالله تعالى يريد أن يصفي نفوسهم وعقولهم من هذه الجوانب بإثبات أن الموت والحياة بيد الله ، وأن المآل والمرجع إلى الله ،

وأن الحذر لا يغني من القدر . وهذه مبادىء إذا استقرت فى مجتمع كان مجتمعا جريئا شجاعا لا يهاب الموت ، ولا يحرص على الحياة الرخيصة الذليلة ، ويقدم على الجهاد ، مستشرفا لمنزلة الاستشهاد .

* * *

وبينما نجد الآيات تسبح فى هذا الجانب : جانب تثبيت المؤمنين وإرشادهم إلى العوامل الحسية والنفسية التى تجعل منهم أمة قوية ، إذا هى يتخللها وصف للرسول صلوات الله وسلامه عليه ، يبين واقعه الخلق الاجتماعى ، ويوحى إليه بأن ذلك هو سر نجاحه فى قيادة المؤمنين ، وسر بقائهم من حوله مخلصين سامعين مطيعين :

فمن ذلك وصفها الرسول باللين والسهولة والرقة ، وتعقيب ذلك بأمره بلوازمه من العفو عنهم والاستغفار لهم ومشاورتهم فى الأمر « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر »

ومن ذلك قوله تعالى « وما كان لنبي أن يغل . . الخ » فقد نزلت فى شأن الرسول ، رداً على الرماة الذين قالوا حين تركوا المركز الذى وضعهم النبي فيه : نخشى أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم « من أخذ شيئاً فهو له ، وألا يقسم الغنائم كما لم يقسم يوم بدر » فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أظننتم أنا نغل ولا نقسم لكم » ولهذا قالت الآية « وما كان لنبي أن يغل » أى ما كان من شأن نبي من الأنبياء أن يغل ويأخذ من الغنيمة ويخون فيها ، لأن الله عصم أنبياءه من ذلك .

وفى هذا نفي لما راود بعض النفوس من ذلك ، وفيه إيحاء إلى أن ذلك ليس من شأن القائد فلا ينبغى أن يفعله ، وليعلم أن النفوس إنما يصلحها العدل وإعطاء الحقوق لأصحابها ، وفى ذلك عبرة للذين يتولون الشئون عامة ، ويغتصبون حقوق ذوى الحقوق . فالله يعلمهم أن ذلك من شأنه إفساد القلوب .

ومن ذلك قوله تعالى «لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين» .

فهو بيان وتذكير بالنعمة . فكون النبي من أنفسهم وليس من قوم آخرين ، فيه إيحاء وتوجيه إلى العزة القومية ، فإن القائد أو الزعيم أو المصلح إذا كان من القوم ومن الأمة . كانت إليه أكثر استجابة . وبه أكثر اعتزازا ، وكان ذلك تكريماً لها وإكباراً لشأنها ، أما إذا تسلط عليها من هو غريب عنها أو تطلع الى حكمها أو إصلاحها من ليس منها ، فإن أمرها يكون على العكس من ذلك ، وتشعر بالغضاضة والكراهية ، بل تشعر بالذلة والمهانة .

وأعتقد أنه لا يصعب بعد ذلك تتبع المعانى التى جاءت بها الآيات التالية ، ولا التوسع فيما ذكرناه من المعانى التى جاءت بها الآيات السابقة ، لمن أوتى حظاً من الفهم ، ونصيباً من الإقبال والتأمل .

* * *

وكما تحدثت السورة عن غزوة أحد ، تحدثت عما أصاب المسلمين فى يوم بئر معونة وقصة ذلك معروفة فى السيرة(١) . وقد رووا أن هذا اليوم هو الذى أنزل الله فى شأن شهدائه «ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون» ، وقيل بل نزلت فى الشهداء عامة ، ولا يمنع نزولها فى حادثة معينة أن معناها عام .

كما تحدثت عن غزوة بدر الآخرة حين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى موعد أبى سفيان الذى هدد المسلمين به ، ثم أراد أن يتخلص منه فبعث الى المسلمين من يخوفهم بما جمع لهم ، فلم يخف الرسول . ولا خاف أصحابه ، وذلك قوله تعالى

---

(١) راجع سيرة ابن هشام ص ٦٤٨ طبع أوربا .

«الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء».

إلى غير ذلك من الموضوعات التى تناولتها السورة تثبيتاً للمؤمنين، وبياناً لمواطن العبرة، وقد جاءت فى ذلك آية مختصرة جامعة، تطلب إلى المؤمنين أن يوطنوا أنفسهم على ملاقاة الصعاب فى الأموال والأنفس، وعلى سماع الأذى الكثير من المشركين ومن أهل الكتاب، وأن عليهم أن يتخذوا شعارهم فى ذلك كله: الصبر والتقوى، وذلك قوله تعالى:

«لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور».

النداء الخامس:

وتختم السورة بعد هذا بنداء أخير موجز، ولكنه يتضمن أركاناً أربعة هى أسس الصرح الأعظم الذى يجب أن تقيمه الأمة لتدرك الفلاح الأعظم. ذلك هو قوله تعالى: «يأيها الذين آمنوا اصبروا، وصابروا، ورابطوا. واتقوا الله، لعلكم تفلحون».

فأول ما أمر به المؤمنين: الصبر، والصبر عدة فى الحياة يتمكن بها المرء من الثبات أمام النوازل، وعدم التزلزل إذا حلت به كارثة من الكوارث، فمن المعروف أن ظروف الحياة لا تواتى الإنسان بكل ما يحب، ولا تمنحه السعادة فى كل وقت، وليس الإنسان بمحصن من المصائب، وإذا كان الأمر كذلك فإنه لابد أن يوطن الإنسان نفسه على تحمل الصعاب إذا عرضت، وعلى مسايرة الحياة بأسلوبها الذى تسير عليه، وذلك يقتضى الصبر.

وقد يفهم بعض الناس أن الصبر هو تقبل المصائب، والخضوع للكوارث

فى ذلة وبلادة واستكانة ، ولكنهم مخطئون فى تصور الصبر على هذا النحو ، فما كان الله ليأمر الناس بالصبر ويحثهم عليه ، ويقرر أنه مع الصابرين ، وأنه سيوفيهم يوم القيامة أجورهم بغير حساب . وهو يقصد بالصبر معنى الاستسلام والرضا المنبعث من الخنوع والخضوع .

إنما الصبر هو أن تتحمل مايصيبك فلا تتزلزل ولا يصيبك اضطراب تفقد به نشاطك وحيلتك . إن الصابر مَثَله كمثل الآلة القوية التى صنعت من مادة جيدة صناعة جيدة ، لذلك نراها تحتمل ولا تقف عند أول مايصيبها . بل تقاوم وتجتاز سبب التعطل متغلبة عليه . وإذا توقفت كان عَوْدها الى العمل سريعا وبأدنى علاج . أما الذى ليس له خلق الصبر فهو كآلة ضعيفة ، مادتها ضعيفة ، وصناعتها ضعيفة ، واحتمالها ضعيف ، فهى تتعطل لأوهى الأسباب ، وهى تحير صاحبها ، وتضيع وقته ، وتحمله من العناء والمكابدة مالا يطيق .

والأمة الصابرة هى التى ألف أفرادها الصبر . فهى أمة مكونة تكويناً قويا صنعها صابرون ، تقل شكاواهم ، وتكثر ثمراتهم . وجيشها صابر يحتمل ويقاوم ولا تهبط قوته المعنوية إذا أصابته هزيمة ، ولا يدركه الغرور والبطر إذا انتصر ، وشعبها صابر لا يشق عليه أن يضحى ببعض ما يحتاج اليه ويصبر على كثير من الصعاب فى سبيل أن تنتصر الأمة وتقهر أعداءها .

وقد علمتنا الحروب الحديثة ، أو أكدت لنا ما نعلمه ، من أن النصر لمن يصبر ، ومن أن الأمة التى يستطار فؤادها ، ويضطرب عند الحوادث أمرها ، هى الأمة التى تعين أعداءها على نفسها ، وتيسر لهم أمر قهرها وإخضاعها .

والأمر الثانى : هو المصابرة ، أى المغالبة فى الصبر ، فالله يطلب من المؤمنين أن يصبروا فى أنفسهم ، وان يغالبوا غيرهم فى الصبر ، كأن هناك مسابقة عليهم أن يبذُّوا الآخرين فيها ، فالصبر تحمل ، والمصابرة مطاولة ومغالبة فى التحمل.

وقد ذكرت سورة آل عمران لوناً من المصابرة فى قوله تعالى : « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » كما ذكرت سورة النساء لوناً آخر فى قوله تعالى « إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون » .

فالمصابرة أن يكون كل من العدو وعدوه يحتمل ألما ومشقة ، ويصيبه قرح وأذى ، ثم يغالب كل منهما صاحبه فى قوة الاحتمال ، وفى أمده ، حتى يكل أحدهما قبل الآخر . والله تعالى يذكرنا بأن المؤمنين متفوقون أو يجب أن يكونوا متفوقين فى هذه المغالبة والمصابرة ، لأنهم ـ مع استوائهم هم وأعداؤهم فى تحمل المشاق ـ لديهم سبب للتفوق هو رجاؤهم فى الله واطمئنانهم إلى أنه ينصر أولياءه ، بينما أعداؤهم محرومون هذا المعنى لأن صاحب الباطل متزلزل ، « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم » .

الأمر الثالث : المرابطة . وأصلها التزام الشىء وعقد العزم عليه ، مأخوذة من الربط ، فالله تعالى يربط على قلوب بعض الناس فيكونون بهذا الربط أقوياء أولى عزم ، ويسيرون فى طريقهم غير ناكصين ولا خائفين ، وقد سميت حراسة الثغور مرابطة لأن المرابطين يلتزمونها ، وكل ثغر من ثغور الأمة يحتاج إلى مرابطين يلتزمونه للحراسة والذود عنه ، فليست الثغور فقط هى الثغور الحسية التى هى أطراف البلاد ، ومداخلها ، وخطوط حدودها ، ولكن فى كل شأن ثغور : فى العلم ثغور ، وفى السياسة ثغور ، وفى الأخلاق ثغور ، وفى الاقتصاد ثغور ، والمؤمنون مكلفون بالمرابطة فى كل ثغر من هذه الثغور وغيرها ، حتى لا يدلف الأعداء إليهم من أية ناحية ، ومن هـــذا يتبين أن المرابطة ليست هى ربط

الخيل للجهاد فحسب ، أو انتظار الصلاة بعد الصلاة ، كما يقول بعض المفسرين ، وإنما هي أوسع من ذلك : هي عقد القلوب على التزام كل ما يصلح به الأفراد ، وتصلح عليه الأمة ، والحذر مما يتسرب إلى بنائها من فساد أو وهن .

الأمر الرابع : التقوى ، وقد تقدم ذكرها وبيان المراد منها بما يغني عن الإعادة .

* * *

وبهذا تم ما أردناه من التعريف بســورة « آل عمران » والحمد لله رب العالمين .